مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد: فلقد أحببت سورة الحجرات حبًّا جمًّا، ويرجع هذا الحب أو ذاك الهوى إلى سنوات الطفولة حينما بدأت في حفظ القرآن وحينما شببت عن الطوق قليلاً كنت أكثر من تلاوة آيات هذه السورة الكريمة وكان يأسرني هذا التقابل في قوله عز وجل : ﴿ **وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ** ﴾ .

وأذكر ذات ليلة في منتصف الستينات من القرن الماضي أني حضرت مناسبة لتقديم واجب العزاء لقريب لنا توفاه الله وكان ذلك في أحد بيوت عائلتنا وسمعت الشيخ وهو يتلو من سورة الحجرات وكان صوته ينساب في رقة وعذوبة وهو يتلو قوله عز وجل : ﴿ **وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ** ﴾ .

وكم تمنيت لو أني أستطيع التعليق على هذه الآية الكريمة، وتوضيح بعضٍ من معانيها العظيمة ولكن صغر السن وقلة العلم قد حالا دون ذلك ، وإن كنت أشعر في أعماقي أن هذه الآية لا تحتاج إلى كثير علم بل إلى صدق تلقٍّ وحسن تذوق، فقد أحسست آنذاك أن هذه الآية إنما تخاطب كل من يسمع هذا الترتيل أو كل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، كما أني أحسست بفضل الله ومنته على العباد بنعمة الهداية والإيمان، ثم إتمام هذه النعمة بالتكريه والتنفير من كل ما يناقض ذلك الإيمان وهو الكفر والفسوق والعصيان.

ثم ها هو بعد أربعة عقود من الزمان مرت على هذه الواقعة إذا بي أحقق بفضل

الله هذه الأمنية الغالية التي راودتني طفلاً صغيراً وعاشت بين جوانحي دهراً طويلاً تحدوني وتُحييني وتحميني، وها هو بعد سنوات من التأمل والقرب ومن المعايشة الحميمة لهذه السورة الكريمة مع إبحارٍ طويل وغوص عميق في بطون كتب التفسير إذا بتلك الفكرة الواعدة ترىٰ النور وتخرج إلىٰ حيز الوجود.

وقد قمت بتفسير سورة الحجرات في أحد مساجد مملكة البحرين وذلك في شهر رمضان المبارك (١٤١٩ هـ/ ١٩٩٨م) وذلك أثناء عملي هناك، ولما عدت إلىٰ الإسكندرية فسرتها مرة ثانية في مسجد الزهراء برشدي سنة (٢٠٠١م) ثم أعدت تفسيرها للمرة الثالثة في جامع الشهيد جلال الدين سري بقرية النخيل ٦ أكتوبر في صيف (٢٠٠٤م) وكنت في كل مرة أضيف ما منَّ الله به عليَّ، فالقرآن معانيه لا تنضب وعجائبه لا تنقضي فهذا الكتاب الذي بين يديك الآن وإن كان في طبعته الأولىٰ إلا أنها في الحقيقة طبعة منقحة ومزيدة إذ أن بها إضافات كثيرة.

وقد كانت نقطة الانطلاق في تناولي لآيات هذه السورة تنبع من الاسم الذي سميت به وهو «الحجرات» فقد حاولت أن أُبيِّن الحكمة والأسرار في تسمية سورة الحجرات بهذا الاسم بالذات فقد يتعجب البعض ويقول: ألم يكن الأولىٰ تسمية سورة الحجرات بسورة التقوىٰ، مثلاً أو بسورة الإيمان حيث تكررت هذه الألفاظ كثيراً في آيات هذه السورة الكريمة، أو تُسمىٰ بسورة الآداب كما يحلو لكثير من الناس أن يسموها به وكأنهم يضنُّون عليها بهذا الاسم الكريم الذي اختاره لها رب العالمين، فهو اسم مشتق من الحجارة ففيه غلظة وقسوة وفظاظة!! قد لا تليق بمقام هذه السورة الكريمة! وهذا يذكرني بالتسمية التي يطلقها بعض الناس علىٰ الحجر الأسود فيسمونه الحجر الأسعد، فهذه التسمية في زعمهم أرق وأنسب!

ومن خلال تفسيرنا الموضوعي لسورة الحجرات سيرىٰ قارئي الكريم كم كان سيفوتنا من الخير الكثير لو أننا استبدلنا الاسم الذي اختاره الله لهذه السورة الكريمة فإنك ستلمس بنفسك هذا الحضور القوي والتأثير العظيم للفظ «الحجرات» الذي تكرر في السورة مرة

واحدة إلا أنه كان بمثابة الرباط الذي يشد آيات السورة بعضها إلى بعض وسترى مواطن الإعجاز تتجلى في اختيار هذا الاسم دون سواه، وكيف أدى مهمته على أحسن صورة وأكمل وجه ففي كل آية من آيات السورة الكريمة سترى إضافة جديدة تلقي مزيداً من الأضواء التي تكشف لك بعض الأسرار التي تكمن وراء اختيار هذا الاسم لسورة الحجرات، فهي رمز لهذا الدين وتجسيد لمبادئ الشرح الحنيف ، وهي السد المنيع الذي يحول دون البغي وتجاوز الحدود.

وفي دراستي المنهجية لسورة الحجرات بينت أهمية الرجوع إلى سورة «الفتح» والتي جاءت في ترتيب المصحف الشريف قبل سورة الحجرات ، وأوضحت بإيجاز العلاقة الوثيقة بين هاتين السورتين المتجاورتين وأننا لا يمكننا أن نفهم سورة الحجرات كما ينبغي إلا بعد دراسة سورة الفتح دراسة متأنية ، فقد جاءت سورة الحجرات لتعقّب على ما وقع في سورة الفتح من أحداث كصلح الحديبية الذي كان له أكبر الأثر في تحويل مسار الدعوة الإسلامية حيث مَهد لفتح مكة ودخول الناس في الإسلام.

وقد بسطت القول حول الجانب الوقائي في سورة الحجرات وبينت مدى اهتمام آيات السورة بناحية الترك والاجتناب أكثر من جانب الأمر والإنشاء ويتضح هذا من اسم السورة «الحجرات» إذ هو مشتق من «الحَجْر» وهو المنع والكف كما أنني قمت بشرح طائفة كريمة من الأحاديث النبوية الشريفة التي تخدم هذا الغرض الذي أوْلَته السورة جل اهتمامها وهو جانب الحذر والوقاية.

كما تناولت «عِنديتين» شريفتين، فلفظ «عند» قد تكرر في السورة مرتين فقط وأول هاتين العنديتين هي العندية المباركة وهي عندية الرسول ﷺ وذلك عند قوله عز وجل: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ** ﴾ والعندية الأخرى هي العندية المقدسة وهي عندية الله عز وجل وذلك عند قوله عز وجل: ﴿ **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** ﴾.

وقمت أيضًا بشرح المعاني اللغوية وتحليل كثير من الألفاظ الواردة في السورة مثل

العقل والصبر والرشد والصدق والحكمة والامتحان والتقوىٰ، وبيان القاسم المشترك الذي يربط بينهما جميعًا وعلاقة ذلك بلفظ الحجرات الذي سميت به هذه السورة الكريمة.

وعرجت إلىٰ بيان صفات أهل البادية وهم الأعراب الذين قاموا بنداء الرسول ﷺ من وراء الحجرات وبينت مدىٰ تأثير البيئة التي نشئوا فيها علىٰ تصرفاتهم التي خلت من الأدب واللياقة، وقارنت ذلك بسلوك أهل المدن الذين يسكنون الحجرات كما أني تكلمت عن الحقوق التي كفلها الإسلام لحفظ حرمات البيوت وخصوصيات الناس، وتكلمت أيضًا عن نماذج من الأدب الرفيع عند سلفنا الصالح في تعاملهم مع النبي ﷺ وتكلمت عن فضيلة الصبر وأهمية الرشد في حياتنا.

ثم تكلمت عن المعنىٰ اللغوي والشرعي للفظ «الفسق» وكيف أنه يأتي في مقابل كلمة الإيمان وكلمة التقوىٰ وذكرت الضوابط الشرعية للتثبت والتي ينبغي الالتزام بها عند نقل الأخبار وتكلمت عن السر في ترتيب نداءات الله لعباده المؤمنين في سورة الحجرات ولماذا جاء الترتيب علىٰ هذا النحو المعجز وأن هذا من مقتضيات الأدب مع رسول الله ﷺ.

وقد فصلت القول في قضية «البغي» وأحكام البُغاة وذلك لبيان مدىٰ عظمة وثراء الفقه الإسلامي وتكلمت بإسهاب عن أهمية الإصلاح بين الناس ولماذا جعله الإسلام في درجة أرفع من درجة الصيام والصلاة وتكلمت عن أهمية التزام العدل في الإصلاح بين الناس وذكرت نماذج وأمثلة رائعة للعدل في الإسلام وتكلمت أيضًا عن آداب القضاء في الإسلام كما تكلمت عن أهمية فضيلة العدل فبالعدل قامت السموات والأرض، والعدل من أسمائه عز وجل.

كما تكلمت عن الأخوة الإيمانية التي عقد الله ميثاقها بين المؤمنين من فوق سبع سموات، وبيَّنت ما لها من حقوق ومتطلبات وتكلمت أيضًا عن سلوكيات الحب في الله وجئت بشواهد كثيرة لترسيخ معاني الأخوة الإيمانية وبينت منزلتها العظيمة

OBEIKAN.COM

التي تبوأتها في دين الإسلام.

ثم تكلمت عما يناقض مفهوم تلك الأخوة الإسلامية وما يهدم صرحها الشامخ كالسخرية واللمز والتنابز بالألقاب، وبينت خطورة ذلك على المجتمع المسلم، كما أفضتُ القول في بيان معنى الظن الذي أمرنا الله باجتنابه وذلك لما له من الأثر السيئ على حياة الناس وتكلمت عن أهمية إحسان الظن بإخواننا المؤمنين والتماس الأعذار لهم.

ثم تكلمت بعد ذلك عن خطورة التجسس وأهمية الستر على المسلمين وتكلمت بعدها عن آفة الغيبة وكيف أن الظن السيئ هو غيبة القلب وأن التجسس هو غيبة العين وأوضحت الإعجاز القرآني في ترتيب تلك الرذائل وكيف أن التشبيه للمغتاب بمن يأكل لحم أخيه الميت ينسحب أيضًا على الظن السيئ وعلى التجسس كما بينت كيفية علاج سوء الظن والتجسس والغيبة وكيفية التوبة لمن وقع في اغتياب الناس.

ثم تكلمت عن التوزيع الدقيق والعجيب لكلمة الفسوق وكلمة التقوى في سورة الحجرات وعلاقة ذلك بنداءات الله لعباده المؤمنين وتكلمت أيضًا عن تكرار كلمات الحب والكره وعن أسلوب الاختزال والاحتباك وأهمية ذلك في استنباط المعاني والأحكام وفي الربط والمقارنة بين ألفاظ ومعاني السورة الكريمة ثم تكلمت عن الفرق بين النواهي الواردة في آية السخرية مقارنة بآية الظن السيئ وعن اختلاف أسلوب كل من الآيتين وأسباب ذلك.

ثم تكلمت عن الإخاء الإنساني وذلك في قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى﴾ وذلك بعد الكلام عن الإخاء الإيماني في قوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ وربطت ذلك بفضيلة التقوى وتكلمت أيضًا عن ارتباط قوله عز وجل: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ بالرذائل المذكورة في السورة التي ينبغي علينا اتقاؤها واجتنابها

ثم تكلمت عن تأديب الله للأعراب بسبب سوء أدبهم مع الله عز وجل ومع رسوله ﷺ وفي مقابل ذلك تكلمت عن الصفات التي ينبغي توفرها في المؤمنين وتكلمت عن أهمية استخدام حرف العطف في قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ ثم تكلمت عن فضيلة الصدق ونماذج للصادقين وختمت ببيان علم الله الشامل فهو سبحانه المطلع على أفعال وأقوال العباد وما تنطوي عليه قلوبهم مما يتناسب مع موضوع السورة فقد جاءت هذه الخاتمة بمثابة التعليل لما ورد فيها من الأوامر والزواجر.

وهذا غيض من فيض وقليل من كثير ولو أني ذكرت كل ما تناولته من المواضيع لطال بنا المقام وتشعب بنا الحديث، والآن أترك قارئي العزيز ليدخل إلى الحجرات الشريفة ولينهل من معينها الثري ما ينير له الدرب ويزيده قربًا من الله عز وجل، وحبًّا لرسوله ﷺ، ولكني أريد التنبيه إلى أن الأحاديث النبوية الشريفة التي ذكرتها في كتابي هذا قد اكتفيت في تخريجها بذكر المصدر الذي ورد فيه الحديث كالصحاح والسنن والمعاجم والمسانيد وغير ذلك ولم أذكر اسم الصحابي الذي روى الحديث إلا إذا دعت الضرورة إلى ذلك، فمثلاً كنت أقول: وفي حديث أحمد والترمذي: «من رد عن عرض أخيه رد الله عن وجهه النار يوم القيامة» دون أن أقول: عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من رد عن عرض أخيه رد الله عن وجهه النار يوم القيامة» والحديث رواه أحمد في «المسند» والترمذي في «سننه».

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أحمد علي السعدني

ليلة الجمعة ١٢ شوال ١٤٢٥هـ

٢٥ نوفمبر ٢٠٠٤م

OBEIKANDL.COM